(العدد الثاني) (السنة الاولى)

الموسوعات

(١٥ رجب سنة ١٣١٦) (٣٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨)

فلسفة التربية الحقة

« بقلم حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده الشهير »

وهى رسالة نقلها عن درس للاستاذ العلامة الفيلسوف الشيخ جمال الدين الافغانى الحسينى رحمه الله كان ألقاه على طلبته الافاضل عندما كان يدرس كتاب الاشارات للشيخ الرئيس أبى على بن سيناء وجعل ذلك الموضوع فاتحة تدريسه . قال حفظه الله

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة فى قوامها تفاعلا متناسباً بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها غلبة تقضى بظهور بعض خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحىّ ما يسمي بالمزاج المعتدل الحامل لروح الحياة فان غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولي المرض على الجسم .

وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديدالموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الي اليبس نذيرالموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشرى والبيطرى ليبحث فى تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التى يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعادبه المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لتتم حكمة الله فى بقاء الا نواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الازلية . فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك ممالابد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج ومضار الاهوية ومنافعها ويقفون بتجاريبهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الي حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتي يحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبيباً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ويميز نافعها من ضارها وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه وخبيراً بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتي يعالج كلا بما يليق به فان جهل من ذلك شيأ كان فقده خيراً من وجوده فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الادوية ماعساه يهيج المرض ويعين من الاغذية مايساعده على قسوته فيفضي ذلك الي هلاك المريض وقد كان بدونه

محتمل الشفاء بمقاومته الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه وكما يلزم للطبيب أن يكون عالما بجميع ماقدمنا يجب أن يكون شفيقاً رحيما صادقاً أميناً لا يكون قصاري عمله مايناله من جعل المعالجة فانه ان كان قسيا عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما صار آلة في أيدى أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلا أو اهماله فى العلاج بما يقدمون اليه من العرض الفانى وكذلك ان قصر همه على مايناله من الدينار والدرهم فانه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فان هلك فقد نال مايزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فمدمه أيضاً خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حين تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوى من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هى ركن لبيت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فان تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقياً سيئ الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك.

ألا ترى ان النفس الانسانية لابد لها من خلق الجراءة وخلق المخافة وهما متضادان ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا وكانت حياته على خطر يهدده فى جميع أوقاته ولو أن الجراءة تغلبت على المخافة حتي ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق

بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوى الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه وكذلك لابد لها من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء والبذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا . ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لأمسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية مثلا والألبسة فيضر ببدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل لجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدي به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لاتنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع مابيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لايجد ماينفقه في ألزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي وسط لطرفين متضادين لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولايسعنا المقام لتفصيل ذلك وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضاً بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوى الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بمبادئهم أو باستماع اغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدى الي فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما

وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة الابدان كما بينا

فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الي حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعى والنباتات والحيوانات وعلل الأمراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحانى طبيب النفوس والأرواح اذا رقي منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الأمة التى قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الأمم أيضاً وان يكون مطلعاً على درجات ترقيها ودركات تدنيها فى جميع الازمان وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أوقديم قوى فى النفوس أو ضعيف وماهو العلاج اللائق بكل صنف

وكما انه يجب على الطبيب البدنى ان يكون على علم تام بمنافع الاعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحانى ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق مافي نفس الأمر والواقع .

وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقاً رحيما صادقا أمينا لا ينظر الى الدنايا ولا يخط الي المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الأمراء والكبراء أولئك هم المرشدون الحقيقيون . فان رزقت الأمة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بمتطببين لا أطباء بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء والسفلة والادنياء فأنذرها بالعناء والشقاء فان المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع

النفوس رذائل الاخلاق باسم انها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيراً ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه . ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح فى الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فان ذا الثانى على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له أن يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم وكذلك ان كان خائناً أو دنيئاً ينحط الي سفاسف الامور أوعديم الشفقة الانسانية فانه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد فى خير أو شر . صفت النفوس أو تكدرت ارتفعت الآداب أو انحطت . صحت الارواح أو اعتلت . فيكون آلة بيد الاشرار وذوي الاهواء يستعملونه فى فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

ألا وان القائمين بأمر الارشاد محصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء جلدتهم والا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كى لا يفسدوها بمرضهم الوبائى الذى لا يقتصر ضرره على المبتلى بل يتعداه بالسراية الي كل ماسواه